الجزائر من خلال الأعمال الفنية الاستشراقية الفرنسية

Algeria through French Orientalist works of art

د. قليل سارة

جامعة أبي بكر بلقايد–تلمسان–، الجزائر، guellilg@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/07 تاريخ القبول: 2021/09/22 تاريخ النشر: 2021/12/16

ملخص:

اعتبر المستشرقون الفرنسيون الجزائر بمثابة الجوهرة فكان احتلالها هو الاكتشاف العظيم الذي فتح لهم عدة مجالات وآفاق ، فقد اندهش الفرنسيون للجمال الطبيعي والفني لهذا البلد المتميز لما يحتويه من روعة وجمال العمران والمدن واللباس والأثاث والتحف التقليدية وغيرها، فكانت الجزائر بمثابة المعرض الذي جلب إليه العديد من المهتمين والمكتشفين من مختلف الأصناف والفئات، ومن بين هؤلاء كانت الحصة المتميزة للفنانين الذين توالت زياراتهم ولم يستطيعوا إخفاء مدى إعجابهم وانبهارهم بالجزائر كمجتمع يملك كل مقومات الحضارة والرقي.

وعلى إثر هذا قام العديد من المستشرقين الفرنسين إنتاج عدة أعمال فنية عن الجزائر، ولكن كان لكل منها نظرته الخاصة عن هذا البلد من بينهم: فرومنتان ودولاكروا واتيان دينيه. فكيف عكست الأعمال الفنية الاستشراقية صورة الجزائر؟

كلمات مفتاحية: الفن–الاستشراق– الجزائر–الأعمال الفنية...

Abstract:

French Orientalists regarded Algeria as the jewel, and its occupation was the great discovery that opened up many fields and prospects. the French were amazed at the natural and artistic beauty of this distinctive country because of its splendor and beauty of architecture, cities, clothing, furniture, traditional and other artifacts. Algeria was the exhibition that brought to it many interested and discoverers of various categories and

categories. among these was the privileged share of artists who visited and could not hide their admiration and admiration for Algeria as a society with all the components of civilization and sophistication.

Many French Orientalists produced several works of art on Algeria, but each had its own view of the country, including Fromentan, Delacroix and Etienne Dené. How did the Orientalist artworks reflect Algeria's image?

Keywords: Art-Orientalism-Algeria-artifacts...

1. مقدمة :

يعتبر الاستشراق أحد الظواهر المعرفية التي أخذت حيزا لا بأس به من الدراسات الفكرية والنقدية والتاريخية والأكاديمية، باعتبار مجالاته التي انكب عليها أساطين الفكر الاستشراقي بدءا بمحاورة الخصائص الثقافية والانتروبولوجية ومرورا بمراجع الفكر الشرقي من قرآن ومدونات تراثية فقهية، وانتهاءا بالأدب العربي القديم وتاريخ العرب الاجتماعي والسياسي.

وإذا كان الاستشراق منظومة شاملة توخت بسط القيم الوجودية للشعوب الشرقية، فإن الفن وباعتبار وظيفته الكشفية– إلى جانب بقية وظائفه الأخرى–قد شكل هو الآخر طرحا استشرقيا حاول من خلاله العديد من الفنانين التشكيلين الغربيين عرض مختلف الخصائص الوجودية للمجتمعات الشرقية وفق تلك الموجة السحرية التي أخذت بلباب الوعي الغربي.

وباعتبار الجزائر جزءا من هذا الشرق الكبير فقد كانت مقصدا لحملات استشراقية مهمة من كبار الفنانين التشكيلين الفرنسين، فقد كان احتلال الفرنسين للجزائر بمثابة الاكتشاف العظيم الذي فتح لهم آفاق جديدة، إذ انبهر الفرنسيون وهم يشاهدون ما للجزائر من جمال طبيعي وفني.

2. مفهوم الاستشراق:

إذ ما رجعنا إلى مصطلح الاستشراق فلقد اختلفت معانيه وتباينت حسب الوضع الذي وضع فيه.

فيمكن القول بأنه أسلوب غربي لمعرفة العالم الشرقي عن طريق البحث أو التخصص في الشرق، بدراسة علوم وآداب وديانات وتاريخ شعوب الشرق للسيطرة عليه.[1]

وعرفه بعض الباحثين على أنه "علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضارتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم".[2]

إن مفهوم الاستشراق orientalisme يعني معرفة الشرق ودراسته غير أن البعض يشير إلى أن المصطلح الجغرافي والفلكي قاصر على إعطاء معنى حقيقي لمفهوم الاستشراق، حيث أن كلمة "الشرق" مدلولا معنويا فالبحث اللغوي الأصلي لكلمة (orient) في اللغات الأوروبية الثلاث المستمدة من الأصل اللاتيني يوضح أن معناها حول طلب العلم والمعرفة والإرشاد والتوجيه، فاستخدام الكلمة بهذه الدلالة اسما لعلوم تبحث في منطقة معينة تعني اعتراف بأن العلم والمعرفة والإرشاد كان يطلب في هذه المنطقة، ووصفها بالشرق يعني بالمقام الأول أنها المنطقة التي أشرقت فيها شمس المعرفة، وليس الشمس بمعناها الحسي المعروف وهذا يعني أن مصطلح "الاستشراق" ليس مستمدا من المدلول الجهوي بل من المدلول المعنوي لشروق الشمس فهي مصدر العلم، وصفة مستشرق ينبغي أن تقتصر على من ليس شرقيا لأنها تصف طلب الشيء غير متوفر في البيئة التي نشأ فيها الطالب.[3]

والاستشراق من مفهومه الفني يعني هو تصوير الشرق في اللوحات الفنية الأوروبية والصور والأعمال من قبل الفنانين الأوروبيين من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، تصور العالم الغربي باعتباره مكان غريب مليء بالصحراء، والحريم والراقصات، وروعة البيئة التي تعكس تاريخا طويلا من الأوهام الاستشراقية التي استمرت لتتخلل الثقافة الشعبية المعاصرة.

تحمل كلمة الاستشراق معان متعددة الأبعاد ومختلفة المحاور والخلفيات السياسية والاجتماعية والثقافية فهي اهتمام وإطلاع على المجتمعات الشرقية وتأثر سلوكياتها وتراثها

عن طريق أساليب متعددة الغايات بريئة بهدف التثاقف والاكتشاف أو عدوانية هدفها الإمبريالية والاستعمار.

3. صورة الجزائر من خلال الفنانين المستشرقين:

يرجع اهتمام المستشرقين الفرنسيين عموما بالشرق العربي والجزائر إلى ما قبل سنة 1930م بعقود، ولكن الحملة الفرنسية هي التي فتحت لهم أبواب الشرق على مصراعيه، فرافقها بعضهم ولحق آخرون في أعقابها.

فالجزائر كبلد بدأت في المخيلة الفرنسية كموضوع واضح المعالم يرسم طريقه موازاة مع تلك التحقيقات الميدانية التي أنجزها الأدباء والرحالة والفنانين المستشرقين حول الجزائر، فتوالت التقارير والكتابات والتصورات، فمن أوائل الرحالة الذين قصدوا الجزائر في إطار البعثات العلمية والميدانية نجد مثلا " بيزوفيل" (1725م)، و "القس بوفي" (1789م) حيث كانت تقاريرهم محملة بمعلومات تاريخية وجغرافية وإثنوغرافية، والصدق والموضوعية في تسجيل جمال وسحر المناظر الطبيعية والعمرانية.

وبالتالي استطاعت الجزائر أن تفتك لنفسها موقعا هاما في مخيلة الفرنسيين، بغض النظر عن البعد السياسي لهذا الموقع فإن انطباعهم ظل حاضرا ومبرهنا للمستشرقين بأن البلد يتربع على خيرات جمالية في شتى المجالات.

وإذا ما حاولنا إحصاء عدد الفنانين الذين زاروا الجزائر منذ بداية الاحتلال وخلال الفترة الاستعمارية لأمكننا القول إن الجزائر كانت قبلة لخيرة الفنانين التشكيلين ليس الفرنسيين فحسب، فعلى سبيل المثال زار الجزائر أوغست رينوار **pierre auguste Renoir**، وهنري ماتيس **Henri matise**، وتيودور جيريكو**Théodore Géricault**، وديكامب **Timo descamp**، ودوزاه **Dusan**، وغيرهم من الفنانين المشهورين أو الأقل شهرة إلا أن أعمال هؤلاء الفنانين ذات مستوى فني كبير كون الفترة التي أنجزت فيها هي

أخصب مراحل الفن الحديث، وهنا ننبه أن هذا الحديث ليس مجرد حديث عن زيارات عابرة أو سياحية لهؤلاء الفنانين إنما نحن نتحدث عن زيارات فنية أثرت في أسلوب وأعمال هؤلاء الفنانين، كما أن مخلفات هؤلاء الفنانين هي التي تتحدث عنهم في مختلف متاحف الجزائر، خاصة في العاصمة وقسنطينة ووهران. إن هذه المتاحف تحتوي العديد من الأعمال الفنية النادرة لكثير منهم، وهي تعتبر من التراث العالمي النادر والمنسي على الرغم من أهميته الكبيرة في تاريخ الفن، وهو ما يمنح متاحف الجزائر منها متحف الفنون الجميلة بالعاصمة مرتبة شديدة الأهمية بين متاحف العالم إذ إنه من الممكن جدا أن تكون تلك المتاحف قطبا سياحيا كبيرا يدر على الدولة قدرا كبيرا من العملة الصعبة إلا أن الإهمال وغفلة المسؤولين في سوء استغلال تلك المقومات جعلها منسية مجهولة.[4]

لقد أظهر الفنانون المستشرقون ميولا خاصا بالجزائر وجمالها، وانبهروا بمدنها وأزقتها وأهلها، فكانت القصبة تلهم أفواج الرسامين الوافدين عليها، ولقد رسم الفنان "طوماس أديسون ميلار" لوحده أكثر من خمس لوحات حول القصبة أشهرها لوحة "شارع القصبة".[5]

كما تحدث الفنان" شاسيرو "عن مدينة الجزائر بشاعرية كبيرة ورسمها بهذه الشاعرية نفسها حيث قال في مذكراته "الجزائر مدينة كمعجون المرمر أو الرخام الأبيض والأفق الوردي المائل للزرقة فوق البحر، وتبدوا السماء زرقاء أيضا لكنها زرقة خفيفة ومضيئة وبنية اللون".

وقد فتن الرسام "أوجين فرومنتان" بالسواحل الجزائرية والمدن المقامة على طولها، فرسم لوحات كثيرة جمعها في كتاب بعنوان "سنة الساحل" وفيه انطباعات جديدة عن الجزائر اتسمت بحميمة العاشق المفتون بالمدينة ونورها، فيقول "إن نور هذه المدينة لا يزيغ البصر

بل يقوي العين ويدخل إلى أعماق الروح سكينة لا أدري كنهها". ويقول إن الألوان المتكررة والتي تفرض نفسها في هذه المدينة هي الأبيض والأزرق والأخضر.

كما قدم الفنان أوجين فرومنتان العديد من الأعمال الفنية في الجزائر، منها "خشب الزيتون في البليدة" و "مقهى كارانسرابل" ولوحة "مناظر من الشقة " و "مسجد قرب الجزائر" وهذا كان أثناء رحلته الأولى للجزائر، أما رحلته الثانية لها والتي كانت لكل من الجزائر وتيبازة وقسنطينة وبسكرة وواحات الجنوب، فكانت نتيجتها إعداد لخمس لوحات شارك بها في صالون سنة 1849م، وبعد زواجه عاد إلى الجزائر وأقام بحي مصطفى بالجزائر من 5 نوفمبر إلى غاية 5أكتوبر 1853م، رفقة زوجته وخلال هذه السنة توجه إلى الأغواط وعين ماضي وتاجموت أنجز خلالها لوحة "شارع من الأغواط " و"المعسكر العربي" و"عرب هاجمهم أسد في المضيق".

وخلال مسيرته الفنية بالجزائر كان كثير الانتقاد للفنانين الذين يأتون إلى الجزائر وكأنهم في رحلات استكشافية دون التعمق في حياة المجتمع الجزائري مركزين في أعمالهم على الجوانب السطحية فقط ونظرا لتأثره وتعلقه بهذا فقد كتب قائلا:" هذه المرة جئت لأعيش وأسكن وألاحظ باستمرار أني أريد أن أغرس ذكرياتي في هذا البلد كما تغرس الشجرة وهذا حتى أتمكن من التجذر في هذه الأرض."[6]وهو ما يبين مدي عمق العلاقة التي ربطته بالجزائر طيلة مكوثه فيها.

لقد تعاطف الفنانون المستشرقون كثيرا مع المدينة الجزائر ووصفوها بعروس الجزائر، وأبرزوا جمالها وسحرها في لوحاتهم الفنية مثلما فعل "ألبير لوبورج" (1849م- 1928م) لما رسم "ساحة الحكومة" و "ميناء الجزائر" وأضفى على هذه الأماكن شاعرية كبيرة من خلال اللون والضوء.

4.الفنان أوجين دولاكروا: Eugène Delacroix

فنان من المدرسة الفرنسية وهو زعيم المدرسة الرومانسية ولد سنة 1798م بشاروبتون سان موريس وتوفي سنة 1863م بباريس، يعتبر الشخصية الرومنسية الأبرز في حقل الاستشراق نظرا لإدخاله الموتيف الشرقي نسيج لوحته الزيتية شكلا ومضمونا على مدار حوالي نصف قرن من الإبداع فمنذ بداية حياته الفنية وحتى وفاته كانت الرموز الشرقية ميزة في فنه وهو دائم التجدد والظهور، وبفضله دخل الموتيف (العنصر) الشرقي منذ بداية تشكل الفن الرومانسي للوحة الزيتية الفرنسية في شتى أنواعها: اللوحة التاريخية، البورتريه، صورة البيئة والحياة، إذ ارتبط التجديد الإبداعي لديه من خطواته الأولى في الفن ارتباطا وثيقا بالنزوغ نحو الشرق وحضارته وفنونه.[7]

على الرغم من كون زيارته للجزائر كانت قصيرة جدا، فإن لوحته نساء الجزائر يضعها المؤرخون من بين اللوحات الأشهر والأهم من بين أعماله، والأكثر من ذلك فإن الكثير من الدارسين يضعونها أنموذجا للفن الرومانسي، صحيح أن اللوحة مليئة بالقيم الفنية والجمالية وهي محكمة التركيب وغارقة في الرومانسية إلا أن هذا غير كاف لتكون على هذه الشهرة الكبيرة لو لم تكن هناك نية في تحدي المجتمع الجزائري المحافظ ومحاولة تكسير لجدار الستر الذي استعصى على الفرنسين، وقد أثار دولاكروا هذه المشكلة في مذكراته، وتحدث عن صعوبة أو استحالة الحصول على نموذج (موديل) شرقي نسوي، "حتى أنه كان يلج إلى إغرائهن بالمال مقابل موافقتهن على تصويره إياهن إلا أن الفرصة تمت في الجزائر رغم قصر مدة الزيارة التي لم تتعد ثلاثة أيام حين استطاع أن يدخل أحد البيوت الجزائرية ويصور نساءه، وهي حالة استثنائية لم تتح لأحد غيره سابقا ويكون بذلك قد أرضى فضوله

الرومانسي برؤية كنز، فدلاكروا كان يعتبر أنه لو لم ير النساء الشرقيات حقا فمعنى ذلك أنه ما كان ليتصور كليا ماهية الشرق الحقيقي أكثر عناصره غموضا."[8]

لوحة " نساء الجزائر" للفنان أوجين دولاكروا"

فلوحة "نساء الجزائر" جاءت داخل حيز مغلق تقبع ثلاث نسوة مع خادمتهن، يرتدين أجمل الثياب مستلقيات أو جالسات على وسائد وسجاد أو زرابي متعددة الألوان والأشكال في جو هادئ وساكن، إنه الحرم أو كما يدعى في العهد العثماني "الحرملك" وهو المكان المخصص للنساء داخل المنازل المسلمة ويمنع منعا باتا على الرجال الغرباء الاقتراب منه، إلا أن دولاكروا تمكن من رسم هذا الجانب الممنوع من المجتمع الإسلامي في بلاد يعتنق دين الإسلام وكان تحت وصاية الحكم العثماني.

لقد كانت هذه اللوحة بمثابة لوحة بورتريه جماعي ومشهد بيئي وصورة من صور البيئة والحياة والسلوك الشرقية والتي نالت إعجابا كبيرا في الوسط الفني ومن طرف النقاد، كما اشتهرت هذه اللوحة باسم "جميلات الجزائر"، ومن خلال هذا العمل فقد ربط الفنان صورة المرأة الشرقية بالصورة القديمة للجمال الأسطوري وقد كتب في يومياته مشيرا إلى هذا التداعي الصوري بعد أن قام بزيارة البيت الجزائري يقول "هذا رائع...إنهن كما في عصر هوميروس، إنني أفضل صورة المرأة هذه على كل من عداها"[9]. لقد جسد دولاكروا في بطلات لوحته ما كان ينبغي رؤيته وما يجسد الحلم بالنسبة له، فشخصية المرأة الشرقية تنضج شاعرية ورفاهية ومقترن بالرخاء الشرقي في عالم ألف ليلة وليلة والذي ارتبط بالذهن الأوروبي.

على الرغم من أن دولاكروا تمكن من تجسيد جمال النساء الجزائريات في هذه اللوحة التي حملت العديد من الرموز الشرقية إلا أن العمل تضمن الكثير من الدلالات الضمنية التي أراد الفنان ايصالها عن المجتمع الجزائري.

لقد برز الفنان دولاكروا وكان اسمه لامعا في الجزائر، كما نجد الفنان الذي اختار أن يعيش ويمضي بقية حياته في هذا البلد الذي عشقه وهو الفنان إتيان دينه الذي صور مختلف لحظات المجتمع البوسعادي وجسد أطفاله ونساءه ورجاله وعاداته وتقاليده وأفراحه...بحيث أنتج العديد من الأعمال الفنية التي عكست صورة الجزائر.

5. خاتمة:

يتضح مما سبق ذكره أن الفنان المستشرق انبهر بجمال الجزائر الطبيعي والفني، وهنا تم تسليط الضوء على مجموعة من الفنانين الذين صوروا الجزائر بجمالها وعكسوا مجتمعها وكانت نخبة من الفنانين الذين زاروا الجزائر وأنجزوا لوحات فنية رائعة تصور هذا المجتمع وعاداته وتقاليده وأفراحه ولباسه ومدنه وشعبه...موجودة الآن في مختلف متاحف العالم.

6. قائمة المراجع:

1-محمد فتح الله الزيادي، الاستشراق أهدافه ووسائله، دار قتيبة، دمشق، ط2، 2002م، ص16.

2-ا.د. فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى) -دراسة مقارنة بين وجهة النظر الإسلامية ووجهة النظر الأوروبية-، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، 1988م، ص29، ص30.

3-عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، دراسة تاريخية لآراء (وات- بروكلمان- قلهازون) مقارنة بالرؤية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1977م، ص16.

4-خالدي محمد، بن عزوز بنعمر، الاستشراق الفرنسي وأثره في نشأة الفن التشكيلي الجزائري، مجلة جماليات، مجلد 1، العدد5، 2018م، ص51.

5-حميد خزعل، المدينة التي أنقذت الفن الغربي من الإفلاس، مقال نشر في جريدة البيان- البيان الثقافي، الإمارات، 2005/10/20م.

6-ابراهيم مردوخ، مسيرة الفن التشكيلي بالجزائر، مطبعة دار هومة، الجزائر، ط1، 2005م، ص 61.

7-المرجع نفسه، ص221.

8-المرجع نفسه، ص 238.